المؤسسات الثقافية

أ – مؤسسة الأوقاف:

ازدهرت الأوقاف وتنوعت في فترة الجزائر العثمانية وشكلت موردا ماليا ضخما ساهم في نما الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية للجزائريين في هذه الفترة، حتى وجدت عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 على فرعين، أوقاف عامة وأوقاف خاصة.

أما الأولى (الأوقاف العامة)؛ وتعني تلك الأوقاف التي تمثل صبغة جماعية، وذات مداخيل محددة، وتشرف على مجموعة من الملحقات والتوابع. [1] وتشمل على أوقاف بيت المال، أوقاف الطرقات، أوقاف العيون (المياه)، أوقاف الأندلس، أوقاف الأشراف، أوقاف الحرمين الشريفين (مكة والمدين)، أوقاف سبل الخيرات.

أما الثانية (الأوقاف الخاصة)؛ وتعنى تلك الأوقاف التي تستعمل فقط لمسجد بعينه أو زاوية أو قبة. وتضم أوقاف الشيخ الثعالبي، وأوقاف الجامع الكبير، وأوقاف مختلف المساجد والزوايا والقباب والجبانات، كل منها على حدة.[2]

1 . أوقاف مكة والمدينة:

تمثل مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين (مكة والمدية) أقدم مؤسسة وقفية في الجزائر، إذ يرجع تأسيسها عند البعض إلى فترة ما قبل الجزائر العثمانية، وهي أكثر الأوقاف ثراء وشأن عن باقي المؤسسات الوقفية العامة حيث بلغت نسبتها أواخر العهد العثماني ثلاثة أرباع هذه الأوقاف.[1]

وتتضح أهميتها أكثر في الحياة الاجتماعية من خلال الإحصائيات التالية قدمها "ديفوكس" (Devoulx) في المجلة الإفريقية عن أملاك هذه المؤسسة عشية الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر بـ 1558 ملكية عقارية. وهذا وفق الجدول الآتي:

الملكية العقارية	المردود السنوي
840 منزل	26653.80 فرنك
258 دكان	4278.60 فرنك
33 مخزن	449.70 فرنك

82 غرفة	846.65 فرنك
03 أفران جير	200.45 فرنك
11 فرن خبز	102.60 فرنك
04 مقاهي	161.70 فرنك
01 فندق	135.00 فرنك
57 بستان	1257.45 فرنك
62 ضيعة	1830.00 فرنك
06 طاحونات	97.50 فرنك
المجموع: 1357 ملكية عقارية	36013.45 فرنك

بالإضافة إلى كراء (عناء) 201 وقفا آخر الذي يقدر دخله السنوي بـ 7209.25 فرنك فيصبح مجموع الأملاك الوقفية لمؤسسة مكة والمدينة 1558 ملكا عقاريا يقابلها مدخول سنوي يقدر بـ: 43222.70 فرنك.[2]

يرسل منه سنويا مبلغ 15.000 فرنك إلى البقاع المقدسة بواسطة أمير ركب الحجاج أو يسلم إلى مبعوث شريف مكة عند زيارته للجزائر، فحين ينفق الجزء الباقي من هذا المدخول على المحتاجين والفقراء وأبناء السيل أو يمنح كإعانة للمنتسبين إلى الحرمين الشريفين بالجزائر أو القادمين إليها من الحجاز، كما كان ينفق جزء من عوائد أوقاف هذه المؤسسة في فدية المسلمين الذين وقعوا في الأسر.

ومن وجهة أخرى ؛ فإن إنفاق عائدات هذه الأوقاف لا تتم إلا بعد تسديد نفقات الصيانة وأجور الموظفين، بحيث كانت المؤسسة ملزمة بتقديم منحة سنوية للموظفين الدائمين بها وبالإنفاق على ثلاثة مساجد حنفية بمدينة الجزائر وصيانتها.[3]

وتبدو الأهمية السياسية لمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين في كونه ا تمثل وجه الجزائر في العالم الإسلامي لما كان يحمله ركب الحج الجزائري كل سنة إلى فقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين الشريفين للكمية الهائلة من النقود والذهب والفضة والألبسة وغيره. ومثل هذا أو أكثر كان يفعل ركب حجيج كل إقليم (قسنطينة، وهران، التيطري)، بهدف التفوق على الأخر. وفي هذا الشأن فإن أيضا لكل عاصمة إقليم أوقاف خاصة بأملاك والمدينة على غرار ما كان في مدينة الجزائر.[4]

2 . أوقاف سبل الخيرات:

يقول عنها الباحث "نور الدين عبد القادر" ما يلي: ((سبل الخيرات و(ربما قالوا سبيل الخيرات) كانت منظمة (أي هيأة وإدارة) لها النظر على مساجد المذهب الحنفي والأملاك المحبسة عليها والإعانات والإسعافات التي كانت تعطى للمعوزين المنتسبين لهذا المذهب وكانت جميع النفقات (المصاريف) من كيس هذه الإدارة التي أنشئت أواسط القرن الحادي عشر والسابع عشر الميلادي واستمرت إلى غاية سنة 1841 م)).[5] وعن نشأتها بالتدقيق يُذكر أنها تعود إلى زمن "شعبان خوجة" الذي أمر بإنشائها سنة 999 هـ .(1584م).[7]

ومجمل مدخول هذه المؤسسة كان مخصص للإنفاق على المساجد الحنفية الكائنة بمدينة الجزائر، والبالغ عددها ثمانية مساجد (الجامع الجديد، وجامع سفير وزاويته، وجامع دار القاضي، وجامع كتشاوة، وجامع شعبان خوجة، وجامع الشبارلية، ومسجدا حسين داي وعلى خوجة الموجودين بحصن القصبة).

أما أمر التصرف في أوقاف سبل الخيرات فيعود إلى المفتي الحنفي الذي يتولى الإمامة والإفتاء بالجامع الجديد، وهو المسجد الرئيسي للمنتسبين للمذهب الحنفي بمدينة الجزائر الذي أقامته طائفة من الإنكشارية في مكان مدرسة المولى "أبي عنان" 1070 هـ . 1660 م.

وتكمن أهمية هذه المؤسسة رغم قلة عدد المساجد الحنفية، وأيضا كون جل الجزائريين هم من أتباع المذهب المالكي إلا أن ثراء الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض العائلات الحضرية المنتسبة للمذهب الحنفي جعل عائداتها هائلة.[8]

فقد جاء في التقرير الذي قدمه "أوبنيوز" (Aubignosc) يوم 25 أوت 1830 إلى الكونت "دو بورمون" (de Bourmont)[9] قائد الحملة الفرنسية على الجزائر أن دخل هذه المؤسسة قد بلغ في هذه السنة 150.000 ف.[10] فحين تقدرها مصادر أخرى أوقافها خلال السنة قد بلغ عددها ما يناهز 331 وقفا منها 119 ملكية عقارية 212 عناء توفر مدخولا سنويا يقد بـ 180.000 ف.[11]

3 . أوقاف بيت المال:

تجسد هذه مؤسسة بيت المال التقاليد العريقة للإدارة الإسلامية التي تدعمت في الفترة العثمانية، وأصبحت تتولى إعانة أبناء السبيل واليتامى والفقراء والأسر، وتتصرف في خمس الغنائم التي تعود للدولة (البنجك)، كما تعنى بشؤون الخراج وتحرص على شراء العتاد وتتولى السهر على إقامة المرافق العامة من طرق وجسور وتشييد المساجد والزوايا،

كما تهتم بالأملاك الشاغرة التي ليس لها ورثة فتجعلها تحت تصرف الخزينة العامة، كونها أملاك المسلمين، كما تشرف على تصفية التركات وتحافظ على ثروات الغائبين وأملاكهم. بالإضافة بقيامها بالأعمال الخيرية والإنسانية واجتماعية مثل دفن الموتى من الفقراء وأبناء السبيل، وتوزيع بعض الصدقات على حوالي مائتي فقير كل يوم خميس، وتقديم الهدايا في كل عيد على الباشا وحاشيته وخدمه، وهي المهام التي صارت تشتهر بها وتختص في أواخر العهد العثماني.

كان يشرف أمر مؤسسة بيت المال أمين يطلق عليه أحيانا أسم (بيت المالجي) وهو موظف رسمي يساعده أحد القضاة الذين يعينهم الباشا لمساعدته وكان يلقب بالوكيل، كما يتولى شؤون التسجيل فيها موثقان يعرفان بالعدول، كما يضاف لها بعض العلماء.[12]

وفي هذا الإطار؛ فإن بيت المالجي كان يتمتع بصلاحيات واسعة واستقلال تام في تسيير شؤون بين المال، فلم يكن مجبر على تقديم حسابات عن عمله لموظفي البايلك، وإنما فقط مطالب بتقديم مبلغ شهري لخزينة الدولة تعادل 180 ف، وتغطية نفقات دفن الفقراء، والتكفل بأجرة القاضي والعدول وبعض العلماء التابعين للمؤسسة.

وتكتسي أهمية مؤسسة بيت المال فى مدى ضخامة مداخليها من خلال ما نستشفه من التصريح الذي أدلى به المفتش العام الفرنسي للمالية حين زيارته للجزائر سنة 1833، إذ قال أن بيت المال جي أخبره أن مدخول بيت المال يقد أسبوعيا بـ 180 فونك ما يعادل 9360 فونك سنويا، وهي أقل بكثير من العوائد الحقيقية التي تتحصل عليه مؤسسة بيت المال.[13]

ب – المساجد:

المساجد في اللغة ؛ جمع مَسجِد، إن أريد به المكان المخصوص المعُدّ للصلوات الخمس، وإن أُريد به موضع سجود الجبهة. فالمسجد في اللغة الموضع الذي يسجد فيه، ثم اتّسع المعنى إلى البيت المُتّخذ لاجتماع المسلمين لأداء الصلاة فيه. وفي الاصطلاح الشرعي: المكان الذي أُعِدّ للصلاة فيه على الدوام، وأصل المسجد شرعًا: كل موضع من الأرض يُسجد لله فيه.[14]

والمسجد أحب البقاع إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾. **التوبة الآية (18**، وقوله تعالى: ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾ **الجن الآية (18)**

فالمسجد أحب البقاع إلى الله تعالى، فهو قلعة الإيمان، وحصن الفضيلة، وهو المدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم، وهو بيت الأتقياء، ومكان اجتماع المسلمين يوميا، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي يتعارفون ويتآلفون، وعلى الخير يتعاونون، منه خرجت جيوشهم، فتحت مشارق الأرض ومغاربها، وإليه يرجع مسافرهم أول ما يرجع، وفيه السّلوى، وفيه يعزي المسلم أخاه المسلم إذا أصابه مصاب، منه تخرج العلماء والفقهاء، وفيه كان الجرحى يُمَرَّضون، وفي رحابه كان التقاضي والقضاء ومحاسبة الخلفاء، فهو ملتقى الأمة وناديها وجامعتها، ومكان شُوراها.[15]

كانت العناية بالمساجد خلال الفترة العثمانية ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم، فلا تكاد تجد قرية أو حيًا في المدينة بدون مسجد، فكان المسجد هو ملتقى العبادة، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب، وكان المسجد أيضا هو الرابطة بين أهل القرية والمدينة أو الحي لأنهم يشتركون جميعًا في بنائه كما كانوا يشتركون في أداء الوظائف فيه، وقد كان تشيد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يقود عملية بناء المسجد والوقف عليه صيانته، ولكن أعيان القرية أو الحي كانوا يساهموا بالتبرع ونحوها، ولا يتعدى مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال مجهود الأفراد، فالدولة لم تكن مسؤولة على بناء المساجد. وإذا بنى أحد الباشوات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص ويوقف عليه ريعه وأملاكه، فهو بذلك يعبر عن إحسانه وحبه للخير وواجبه الديني وليس عن واجبه السياسي.[16]

وعن عدد المساجد في مدينة الجزائر يشير ديفوكس سنة 1246هـ /1830م عند الاحتلال الفرنسية للمدينة، وهو الذي كان يبحث في موضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر فقال: أنه كان بها ثلاثة عشرة جامعا كبيرا (أو جامع خطبة) ومائة وتسعة مساجد.

وفي مدينة قسنطينة، تذكر الإحصائيات أنه في عهد صالح باي الذي اعتنى بإحصاء المساجد وترميمها وتشيدها ، بلغت خمسة وسبعين مسجدا وجامعا، بالإضافة إلى سبعة تقع خارج المدينة.

وكان إقليم قسنطينة على اتساعه قد اشتمل على عدد آخر من المساجد أيضا. من ذلك عنابة كانت فيها سبعة وثلاثون مسجدا، أشهرها جامع سيدي مروان، وفي سنة 1026هـ أشاد صالح باي جامعا أصبح يعرف بالجامع الجديد. كما اشتهرت بجاية بالمساجد

القديمة والحديثة، ومن أحدثها في العهد العثماني الجامع الكبير الذي أمر ببنائه مصطفى باشا عام 1202هـ ومن أشهر مساجد بايلك قسنطينة أيضا مسجد خنقة سيدي ناجي الذي يعود تاريخه إلى عام 1247هوالذي كان مع المدرسة والزاويا مقصد العلماء. أما في القل فقد بنى أحمد القلي باي قسنطينة جامعا عام 1170هـ اعترافا منه، بجميل أهل القل لكرمهم له عندما كان آغا عليهم. أما في تقرت فقد بنى إبراهيم بن أحمد بن جلاب عام 1220هـ جامعا واسعا جلب له الرحام من تونس.[17]

وفي بايلك الغرب أنشأت السلطة العثمانية والأهالي عدد من المساجد، حيث تذكر المصادر أنه كان بتلمسان في آخر العهد العثماني خمسون مسجدا، منها جامع سيدي بومدين والجامع الكبير وجامع محمد السنوسي وجامع ابن زكري وجامع أولاد الإمام وجامع المشور، كما أن الباي محمد الكبير قد شيد مسجده الأعظم بمعسكر، وهو الياي أيضا الذي بنى جامع وهران بعد إعادة استعادتها للمسلمين من طرف الاحتلال الاسباني على يديه عام 1205هـ، وهناك أيضا جامع سيدي المزاري الذي بناه مصطفى بومزراق آخر بايات التيطري، والجامع الأحمر الذي شيده الباي حسن في حدود عام 1213هـ.[18]

---

(1) يفرض هذا التعريف الدقيق قيود وخصوصيات، فرغم العمومية لهذه الأوقاف إلا أنها لكل منها ميزتها فمثلا أوقاف الأشراف كانت خاصة بفئة معينة في المجتمع، وأيضا أوقاف الأندلس، فهي لا تتعدى إلى غيرهم، وكذلك أوقاف سبل الخيرات رغم عموميتها فهي خاصة بمباني المذهب الحنفي.

(2) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 . 1830)**، مرجع سابق، ج 1، ص: 153.

(3) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2011، ص ص:239. وكذلك ينظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 . 1830)**، مرجع سابق، ص: 238.

(4) Albert DEVOULX, (Les édifices religieux de L'ancien Alger), **Revue africaine**, ALGER, 1867. p: 470.

(4) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية**، مرجع سابق، ص:240. وكذلك ينظر: محمد العربي الزبيري، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر،1981، ص:196. وأيضا: Georges Yver, (Mémoire de Bouderbah), **Revue africaine**, ALGER, 1913. p: 240.

(5) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 . 1830)**، مرجع سابق، ص: 239.

(5) نور الدين عبد القادر، **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر**، نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، 1965، ص:156.

(7) Georges Yver, op.cit, 1913. p: 240 .

وأيضا ينظر: محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص:196.

(8) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية**، مرجع سابق، ص ص:241 . 242.

(9) لويس أوغست فكتور دي شاز الملقب بـ الكونت دي بورمون. ولد في 2 سبتمبر 1773 في مقاطعة (فريني)، لقب بالخائن لكونه فر من جيش نابليون بونابرت أثناء معركة (واترلو) عام 1814، كان من دعاة الملكية الرجعية لذلك قربه الملك البربوني شارل العاشر وعينه وزيرا للحربية في 23 ماي 1825، بعدها اختاره لمهمة قيادة الحملة العسكرية

الفرنسية على الجزائر، التي كلف بها يوم 11 أفريل 1830، رقي إلى رتبة مارشال يوم 14 جويلية 1830،لم يتمتع بنتائج الحملة على الجزائر رغم قيادته لها ونجاحه فيها ،إذ بمجرد قيام ثورة 1830 التي أطاحت بالملك شارل العاشر حتى استدعته حكومة الملك لويس فليب يوم 18 أوت 1830 وعينت مكانه اللواء كلوزيل، توفي في 27 أكتوبر 1846.

(10) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2010، ج 4، ص:54.

(11) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية**، مرجع سابق، ص ص: 272 . 273 .

(12) نفسه، ص ص: 272 . 273. ينظر أيضا: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 . 1830)**، مرجع سابق، ص: 239 .

(13) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية**، مرجع سابق، ص ص:273 .

(14) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، **المساجد في ضوء الكتاب والسنة**، مؤسسة الجريسي للتوزيع والاعلان، الرياض، ص ص: 6 – 7.

(15) خير الدين وانلي، **المسجد في الإسلام أحكامه آدابه، بدعه**، ط3، المكتبة الإسلامية، الأردن ، 1414 ه، ص: 10.

(16) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 . 1830)**، مرجع سابق، ص: 247 .

(17) نفسه، ص ص: 248- 249.

(17) (18) نفسه، ص: 250.